الغنـــاء المريض

ينخر الخلق المصرى والمجتمع

للأســـتاذ سيد قطب

ليست تهمنى الأخلاق التقليدية فى أوضاعها الشكلية التى تتبادر إلى أذهان العامة أو أشباههم عند ذكر كلمة الأخلاق . ولست أتصور الفضيلة فى هذه الأوضاع المتعارفة ، فالباعث على هذا العمل أو ذاك هو موضع التقدير لا العمل نفسه

فالذى يجتنب الشر مثلاً لأنه يخشى عذاب الآخرة فحسب لا يرتفع مستواه الخلقى فى اعتقادى عن الذين يجتنبون الجرائم لمجرد خوفهم من قانون العقوبات ، فالمسافة قصيرة بين من يخاف عذاباً مجهولاً ومن يخشى عقاباً معروفاً ، بل ربما كان المجهول مهولاً مخوفاً أشد من المعلوم ، وأكثر ردعاً للنفوس الشريرة !

وعندى أن الرجولة الصحيحة وفضائلها الذاتية كالمروءة والنجدة والعطف والاعتداد بالكرامة والإيثار وتحمل التبعات ، والأنوثة السليمة وفضائلها الكامنة من حياء ورحمة وتضحية . وكذلك الفضائل المشتركة كحساسية الضمير وسمو النفس وطهارة الإحساس ونظافة القاموس الشخصى بترفع الأذن واللسان عن الاستماع والنطق بالمعانى النازلة والتعبيرات الفاحشة والألفاظ المرذولة . . . كل أولئك وأمثاله من صميم الأخلاق

بل إن الذوق الراقى ، وتذوق الجمال ، والحس المرهف ، من صميم الأخلاق . لأن النفس الإنسانية لا ترتفع لتقدير الجمال فى المنظر الجميل أو اللحن الجميل أو الوجه الجميل حتى تكون قد خطت فى مدارج الرقى الإنسانى ، والتهذيب العقلى والنفسى خطوات تضمن لها مستوى راقياً من الخلق السليم

وليست الفضيلة عملاً سلبياً بالامتناع عن الرذائل المتعارفة ، ولكنها فى صميمها أعمال إيجابية أو شعور يدفع إلى أعمال إيجابية . فحسباننا الرجل الذى لا يعمل كذا ولا كذا من الرذائل المشهورة رجلاً فاضلاً هو خطأ فى تصور الفضيلة وغبن لها

كما أن هناك نقائص لا نعيرها حقها من العناية فى تقدير الناس لدينا ، فخلائق : كالحقد أو الشماتة أو نضوب العطف الإنسانى وبلادة الإحساس بآلام الناس ، أو عدم الترفع عن الملق والرياء ، أو سرعة اليأس والعجز عن مواجهة التبعات ، هى من صميم الرذائل الإنسانية ولو لم يأت صاحبها رذيلة إيجابية واحدة

وكل ما يعمل لهدم فضائل الرجولة أو فضائل الأنوثة أو فضائل الجنس الإنسانى المشتركة التى سبقت الإشارة إلى بعضها إنما هو عمل شرير تنبغى مقاومته لأنه هدم للخلق وللمجتمع

وإذا نظرنا إلى الأخلاق من هذه الوجهة أمكننا أن نقدر أن الغناء المريض — وأغلب ما يذاع فى هذه الأيام كذلك — هو أكبر معول يهدم بناء المجتمع المصرى ويحطم الخلق الشخصى ، لأنه يحارب فضائل الرجل وفضائل المرأة وفضائل الجنس كله على الوضع السالف . ولما كنت لا أبتغى تجريح أشخاص بالذات من المؤلفين أو المطربين والمطربات ؛ فإنى أكتفى بالإشارة إلى بعض الأغانى المتداولة فى هذا السياق

لا يمارى أحد فى أن الرجولة وكل فضائلها تتأذى أشد التأذى من أغنية مثل : « يا لوعتى ياشقايا . يا ضنى حالى » أو « راضى بلومه وكلامه . ولو أنى مظلوم معاه » أو « الهوان وياك معزة » أو « ميلت بختى فى الحب يختى ! »

فاذا نجد فى تحليل الخلق الفرنسى السياسى كما وصفه الداهية المجرى « كورنيس » ؟

نجد فرقاً شاسعاً بين الخلقين الفرنسى والانجليزى . فهما طرفا نقيض . ليس الفرنسيون شعب التطور التاريخى البطىء ، ولكن شعب التغييرات الثورية الفجائية ، شعب شديد التأثر قوى الاندفاع بلا « فرامل » ولا « صواميل » . شعب « المأساة » لا « الرواية » ، وخط تطوره ليس مستقيما ولكنه كثير التعرج والمنعطفات . ففى آخر القرن الثامن عشر قلبت الأمة الفرنسية الحكومة الملكية باسم الديمقراطية والحرية ، ومع ذلك لم تمض عشر سنوات حتى عادت فرنسا أمبراطورية مطلقة ! ثم ارتدت فصارت ملكية محافظة ! ثم تحولت إلى ملكية بورجوازية حرة ! ثم كانت ثورة أخرى ردت الجمهورية الثانية ! ثم انقلاب حكومى أعاد السلطة أمبراطوراً ! ثم سقط هذا الأمبراطور فى ١٨٧٠ وعادت فرنسا إلى ما كانت عليه فى ١٧٣٩ إلى الجمهورية ! فلا توجد على هذا أمة كفرنسا فى اندفاعها وتحولها وانقلابها . . . » ثم قال الصاوى : « هل ترانا نفهم الآن بعض الفهم السر فى أن الفرنسيين قد قالوا لهتلر « نعم » وأن الإنجليز قد قالوا « لا » ؟

عبد المنعم خلوف

ولا شك أن الأنوثة وكل فضائلها تخدش أشنع الخدش من أغنية مثـل : « يا حبيبي تعال الحقني شوف اللي جرى لي من نار حبك » أو « إمتى أنول وصلك وأقول : راح العذول مالوش أثر » وأن فضائل الجنسين جميعاً تشمئز من أغنية مثل « تعالى بين أحضاني »

وليست الألفاظ وحدها في مثل هذه الأغاني هي التي تؤذي فضائل الجنسين وسلامة الفطرة فيهما ، فإن النغمة والأداء قد تكون أشـد إيذاء من الألفاظ . وهناك أغنيات تذاع قد لا يكون في ألفاظها شيء فاحش ، ولكن الميوعة في التلحين والتخلع والتكسر في الغناء أخش من الألفاظ، مثل اسطوانات : « يا عرقسوس » و « همل إيه » و « يا ماما » ! وهي لا ترتفع كثيراً عن « والنبي يا عبده » الممنوعة

ولا يقف ضرر مثل هذه الأغاني عند خدش اللفظ وتكسر الأداء وما يشيعه هذا في نفوس أبناء الجيل وبناته من انحلال . ولـكنه يتعداه إلى مسخ الفطرة الإنسانية ، وتشويه العواطف الراقية ، والهبوط بالذوق العام ، وهو إحدى الفضائل كما أسلفت

فالحب الذي تهبط به هذه الأغاني ذلك الهبوط المشين عاطفة إنسانية من أجل العواطف ، وهو مثار كل نشاط إنساني في هذا الـكوكب الأرضي، وهو غير مقصور على الحب الجنسي ، وحتى هذا الحب لا يمكن أن يهبط في فطرة آدمي سليم إلى هذا المستوى الذي تصوره الأغاني المصرية ويصوره التلحين والأداء، لأنه في صميمه فورة في الشعور وفيض في الضمير وامتلاء بالقوى الحيوية يدفع إلى النشاط والتعمير ، لا إلى الذل والترهل والبكاء والعويل

على أن وراء هذا وذلك شيئاً خفياً مؤذياً في تصوير العواطف الإنسانية هذا التصوير ، وفي هذه الأساليب من ناحية التأليف والتلحين والأداء، فالذوق الذي يسيطر على هذا كله هو «الذوق البلدي » بأفصح تعبير . فلا يبدو في هذا الغناء أثر للثقافة الذهنية أو الخلقية أو الاجتماعية، والمستمع الراقي لا يجد ما يرتفع إلى مستواه أو يعبر عن شعوره الذي تولده عواطفه المهذبة . والشعب المصري مهما ظلمناه لا يخلو من المثقفين ولا من الوسط النفسي المهذب ولا من الشعور السالم ، فأين يجد هؤلاء غذاءهم الروحي من الموسيقى والغناء

فليس كل رجل في مصر يحب فتاة فيناديها بأعلى صوته « تعالى بين أحضاني » وهذا تعبير طبقة معينة من الشعب ؛ فأين تعبير الطبقات المهذبة ؟

وليست كل فتاة تحب شاباً فتهتف من أعماقها : « امتى أنول وصلك وأقول : راح العذول مالوش أثر » فهذا تعبير طبقة خاصة من النساء ؛ فأين تعبير الفتيات من المذاري والسيدات ؟

على أنه لو صح أن الشعب المصري كله من أمثال هؤلاء السادة والسيدات ، لـكان على الموسيقى والغناء أن يرتفعا رويداً رويداً بهذا المستوى ، حتى يصلا به إلى الرفعة اللائقة بالفنون

ولعل منشأ هذا أن طبقة المؤلفين المحترفين والمشتغلين بالغناء في مصر هم من بيئة اجتماعية خاصة ، لا تؤهلها ثقافتها العقلية ولا تربيتها النفسية ولا وسطها الاجتماعي من الالتفات لغير ما التفتت إليه حتى الآن من ألوان التعبير والموسيقى والغناء . ولـكن ما ذنب هذه الأمة يهتفون لها بأحط غرائزها ، وينادون فيها أردأ إحساساتها ، ويلفتونها عن كل ما هو راق وجميل في هذه الحياة ؟

ثم ما ذنب الأسر والبيوت تصل إليها أصوات هؤلاء الناس وتكسراتهم الخليعة وتأوهاتهم المريضة آناء الليل وأطراف النهار، وفي مصر وزارة للشئون الاجتماعية ورقابة أدبية في وزارة الداخلية لا يبلغ من نفوذهما أن تكون لهما السيطرة التامة على كل ما يذاع !

إن الرقابة على الموسيقى والغناء سواء في محطة الإذاعة أو الصالات أو الاسطوانات ينبغي أن تسند إلى هيئة من مثقفي العقول والنفوس ، واسعي الاطلاع على نهضات الفنون ، ذوي أذواق خاصة ممتازة ، وهذه الهيئة تملك أن تمنع إذاعة كل أغنية وإعدام كل فلم أو أسطوانة أو شريط مسجل لا يتفق مع توجيهاتها ، على أن توضع عقوبات لمن يترنم بالأغاني الممنوعة حتى من الجمهور ، عملاً على إسكات هذه الأصوات الغريزية الواطئة ، وترقية للذوق العام والخلق المهدد بالانحلال

ولا يفهم من هذا أني أريد للغناء المصري مواعظ خلقية ودعوات اجتماعية ووطنية ؛ فأنا قليل الثقة بجدوى الفنون حين تسلك هذا المسلك الجاف ، وإن لها سبيلاً أقوم من هذا وأنفع ؛ فالفكاهة العالية ، والنقد اللاذع ، وتصوير العواطف الإنسانية الراقية المهذبة ، وتفتيح الإحساس على مباهج الكون وخفايا النفس وجمال الطبيعة — كل أولئك من خصائص الموسيقى والغناء ، وخصائص الفنون جميعاً ، وهي أولى بها من الدعوات